الكنز المنشود

أثر تدبر سورة الفاتحة

في صياغة الشخصية المسلمة

إعداد

أحمد بن محمد الشرقاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

الجامعة الإسلامية المدينة المنورة

وجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نزل القرآن الكريم هداية للناس وتوجيها لهم نحو ما فيه الخير والصلاح لدنياهم وأخراهم ، ومقاصد القرآن إنما تتحقق في مجتمعاتنا بقدر تدبُّرنا وفهمنا للقرآن الذي به نجاتُنا وحياتُنا ، وهو الدرعُ الحصين الذي نواجه به التحديات ، والمخرجُ الآمن من الأزمات ، والمنهاجُ الذي نسير عليه ، والسراجُ الذي نبصرُ به ، والكتابُ الذي نتعبَّدُ بتلاوته ، ونرتقي بتدبُّره والعملِ به ، وهو طريقُ الفلاح والفوزِ بالنعيمِ الأبدي ، قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] .

فهذا الكتاب العظيم الشأن المبارك ، نزل لتدبُّره ، والتدبُّر مفتاحُ التذكُّر ، والتذكُّر يعني حضورَ القلب والوعي ، وهو منهج هدايةٍ وإصلاحٍ لمن تدبَّره ، قَالَ الْحَسَن : " وَإِنَّمَا تَدَبُّرُ آيَاتِهِ اتِّبَاعُهُ بِعَمَلِهِ " [١] ، فالقرآن ليس للتلاوة فحسب ، نعم في التلاوة أجرٌ عظيم وثواب جزيل ، لكن التدبر واجبٌ شرعيٌّ ، فهو السبيل إلى الاستجابة والعمل ، قال إياس بن معاوية: " مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتابٌ من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباحٌ ، فتداخلتهم رَوعةٌ ولا يدرون ما في الكتاب ، ومثلُ الذي يعرفُ التفسير كمثل رجلٍ جاءهم بمصباحٍ فقرءوا ما في الكتاب " [٢].

ولقد تأملتُ في سورة الفاتحة فوجدتُها كنزا زاخرا ، نتلوها ونكررُها في صلواتنا بالليل والنهار ؛ في الخلوات والجلوات ، ولقد ورد فيها من الفضائل ما يحفِّزنا على قراءتها وتدبُّرها ، ويلفت أنظارنا إلى عظمتها وتفرُّدها ، ففيها صياغةٌ للشخصية الإسلامية ، وبناءٌ وارتقاءٌ بالمجتمع المسلم ، تلك الصياغة التي تحتاج لحرارة إيمانية عاليةٍ ، تصهر القلوبَ وتلينها ، وها نحن نقرأها بين يدي ربنا كلَّ يومٍ في صلواتنا ، فُرادى وجماعات ، لكني لمست عزوف أكثر الناس عن تدبُّرها وانصرافَهم عن هداياتها وحرمانهم من ثمراتها ، ومما يبعثُ الأسى أن البعض ربَّما لا يقرؤها إلا للتبرك واستفتاح الأعمال ، غافلا عما فيها من حكم وأحكام ومقاصد ومعانٍ ، لها تأثيرها على النفوس ، مع تنويه الله تعالى في كتابه بفضلها ، ومع الأحاديث والآثار الكثيرة الواردة في فضائلها ، ومع كثرة أسمائها وأوصافها ، وجلال مقاصدها وسموِّ أهدافها وروعة أسلوبها وتدفُّق معانيها ، وثراءِ كلماتها ، فهي كنزٌ زاخرٌ وطاقةٌ تتجددُ ولا تتبدَّدُ ، وشجرةٌ مغدقةٌ بأطايب الثمرات .

١- شعب الإيمان للبيهقي (٣ / ٤٠٧) .

٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١ / ٢٦) .

وصياغة الشخصية الإنسانية من أهمِّ مقاصد الدين ، فالفرد المسلم لبنةٌ في بناء المجتمع ، بصلاحه واستقامته وإيمانه وإيجابيته واعتداله وتوازنه ووعيه وثقافته ، ينهض المجتمع ويرقَى ، ويسعدُ دُنيا وأُخرى ، وحين نتأمل في واقعنا نلحظُ تلك المؤامرات المتلاحقة لسلخ المسلم عن هويته وانتزاعه من قيمه ، واستبدالها بقيم وأعراف غريبةٍ عن المجتمع ، أو الخلط بين القيم الإسلامية وإفرازات الديانات المحرّفة والفلسفات والمذاهب الوضعية لتمييع الشخصية الإسلامية وتذويبها في بحار العولمة والتغريب .

من هذا المنطلق راودتني فكرة هذا البحث ، الذي سيدور – بإذن – الله حول بيان أثر تدبر سورة الفاتحة في صياغة الشخصية المسلمة ، كيف أنها منهاجُ حياةٍ ، وقواعدُ إصلاحٍ للفرد والمجتمع ، كيف تنهضُ بقارئها ، كيف ترقى به إلى آفاقِ الفضيلة ، وللعلماء عندها وقفاتٌ جليلةٌ ، ونظراتٌ عميقةٌ ، يحتاجُ التنقيبُ عنها للغوصِ بنفَسٍ طويلٍ في كتبِ التفسير لاستخراجِ ما يتيسر من تلك الدرر التي تنتظم في قلادة الحمد وتعمِّقُ تدبُّرنا للسورة .

أهداف البحث :

- صرف الأفكار ولفت الأنظار إلى عظمة سورة الفاتحة ، وتأثيرها العجيب ، وفضائلها الكثيرة وحِكمة قراءتها في الصلوات .
- العيش في رحاب سورة الفاتحة ، وتيسير تدبُّرها ، وشحذ الهمم ، وجمع الفِكَر ، وتهيئة النفوس ، وتفتيح العقول لتدبُّرها .
- إبراز معالم الشخصية المسلمة وأُطُرِ صياغتها من خلال سورة الفاتحة .
- المساهمة في الدراسات القرآنية المتعلقة بالتدبر وتوجيهها توجيها عمليا ، ينتفع به الناس .
- بيان أثر القرآن الكريم في إصلاح النفس والمجتمع .

الدراسات السابقة : للمفسرين وقفاتٌ ونظراتٌ في سورة الفاتحة من خلال تفاسيرهم ، وهناك من أفردها بالتأليف ، ومنهم :

- الإمام عبدالعزيز بن أحمد بن سعيد الديريني ٦٩٤هـ في الأنوار الواضحة في تفسير الفاتحة .
- الإمام عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني الشافعي (ت ٧٦٨) في التجارة الرابحة على مقاصد الفاتحة .
- الحافظ ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥) : تفسير سورة الفاتحة .
- الإمام محمد بن عبد الدائم بن محمد ،ابن بنت الميلق (ت٧٩٧) : التجارة الرابحة في الدلالة على مقاصد الفاتحة .

- الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان النجدي (ت ١٢٠٦) : تفسير سورة الفاتحة .

ومن العلماء من أولاها عناية خاصة في مؤلفاته كالإمام ابن القيم – رحمه الله – .

وكتب أخونا الشيخ د. عبد الحكيم بن عبد الله القاسم كتابا بعنوان " **سورة الصلاة ترتج بها المساجد والمصليات، ولكن !!** " ، طبعه المنتدى الإسلامي ١٤٢٢ هـ ، في ٧٨ صفحة فسّر فيه السورة آية آية ، وذكر ما ورد في فضائلها وأبرز جملة من لطائفها ، ساق كثيرا منها من كتب ابن القيم – رحمه الله – ، وشيخه الإمام ابن تيمية .

أما عملي في هذا البحث فإبراز معالم الشخصية المسلمة التي يصوغها الإسلام في ضوء هذه السورة العظيمة وقد اطلعت على أهم ما كُتب في الشخصية المسلمة لتتعمق الفكرة لدي وتتضح الرؤية لي من ذلك :

- **الشخصية الإسلامية** ، د. عائشة بنت الشاطئ ، ط دار العلم للملايين ١٣٩٢ هـ ، ويقع في ٢٢٩ صفحة ، أبرز مباحثه : الإسلام والإيمان . بشر لا ملائكة . بين المادية والروحية . بين العبادة والعمل . بين الدين والعقل . بين المحافظ والتجديد . الذاتية الإسلامية بين الفردية والجماعية . وأسلوبها أدبي فلسفي ، مع كثرة الاستطراد.
- **شخصية المسلم كما يصورها القرآن** ، د . مصطفى عبد الواحد فرغ منه سنة ١٣٧٩ ، ط مكتبة المتنبي ، ويقع في ١٨٠ صفحة ، وله ثلاثة أبواب : أساس البناء العقيدة ، الثاني : صلة المسلم بربه ، الثالث : صلة المسلم بالناس : صدقه أمانته تسامحه صبره تعففه وقناعته استزادته من المعرفة ، قوته وصحته ، إباؤه وكرمه ، بذله للعون ، بُعده عن الحرام ، ويكثر فيه الاستطرادات ولا أراه مندرجا تحت التفسير الموضوعي كما قد يوحي بذلك عنوانه .
- **معالم الشخصية الإسلامية** ، د عمر سليمان الأشقر ، ط مكتبة الفلاح بالكويت ١٣٩٩ هـ ، ويقع في ٥٧ صفحة من الحجم المتوسط ، ومن أبرز عناوينه : صبغة الله ، العبادة ، العمل ، الدعوة ، التربية ، البصيرة ، العزة ، التمسك بالحق ، المجاهدة ، الثبات ، الرضا ، إدراك غاية الحياة .
- شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في ضوء الكتاب والسنة ، ط دار البشائر الإسلامية ، د. محمد علي الهاشمي يقع في ٣٣٦ صفحة فرغ منه سنة ١٤٠١ هـ، وفيه تحدث عن علاقة المسلم بربه ، وعلاقته بأهله وجيرانه ، وعلاقته مع مجتمعه مبيِّنا القيم والآداب الإسلامية .

خطة البحث : وأقترح أن يكون هذا البحث من مقدمة ومبحثين :

المبحث الأول : أسماء سورة الفاتحة وأوصافها وفضائلها.

المبحث الثاني : أثر تدبرها في صياغة الشخصية المسلمة .

١. شخصٌ ربانيٌّ .
٢. شخصيةٌ مؤمنةٌ .
٣. شخصٌ رحيمٌ .
٤. شخصٌ عادلٌ .
٥. شخصٌ متحرِّرٌ .
٦. عابدٌ لربِّه .
٧. يعملُ في جماعةٍ .
٨. شخصٌ طموحٌ راقٍ .
٩. وسطي .
١٠. إيجابي .
١١. شخصيةٌ متوازنة .
١٢. شخصية سوية .
١٣. شخصية واعية .
١٤. شخصٌ مثقَّفٌ .
١٥. مرهف الحسّ .
١٦. شخصية قيادية رائدة .
١٧. شخصيةٌ أبيَّةٌ .
١٨. عاملٌ متعاونٌ .
١٩. يؤدي واجباته ويعرف حقوقه .
٢٠. شخصية ثابتة .

الخاتمة وفيها النتائج والتوصيات ومراجع البحث .

منهج البحث

١. تدبر سورة الفاتحة واقتباس الهدايات التي تساهم في صياغة الشخصية المسلمة التي يرتكز عليها المجتمع .
٢. جمع ما تيسر من اللطائف والفوائد – المتعلقة بصياغة الشخصية والتي استنبطها العلماء أو تجلَّت لهم من خلال سورة الفاتحة — من بطون كتب التفسير وغيرها ، مع التعليق على ما يحتاج لتعليق ، وربطها بالواقع .
٣. بيان سمات الشخصية المسلمة في ضوء سورة الفاتحة ، مع تجلية أثر قراءة السورة في إصلاح النفس .

المبحث الأول : أسماء السورة وأوصافها وفضائلها

تحتاج النفوس في تغييرها وصياغتها إلى طاقة متوهجة ، وانطلاقة قوية ترتكز على قاعدة حصينة ، والقرآن الكريم هو الركيزة الأساسية بما يرسِّخه من إيمان ومعرفة ، وقيمٍ وأخلاق ، واعتقاد وسلوك ، من هنا تأتي أهمية التلاوة والتدبر وأثرهما العظيم في صياغة الشخصية المسلمة التي تعظّم كتاب ربها وتأخذه بقوة وعزيمة ، والفاتحة أعظم سورة في القرآن ، لها من الفضائل والمزايا ما لم يجتمع لغيرها من سور القرآن ، فهي سورة الصلاة وسورة الشفاء ، ومما يعين على تدبُّر هذه السورة والمداومة على تلاوتها والجدِّ في التماس بركاتها واقتباس أنوارها ، ما حُفَّت به من فضائل وما زُفَّت به من محامد ، وما لها من أسماء وأوصافٍ ، تجعلُ القارئ أشدَّ شوقا وأعظم حرصا على الانتفاع بها ، فقد أثنى الله عليها في كتابه ، ونوَّه النبيُّ ﷺ ونبَّه على فضائلها .

المطلب الأول : أسماء السورة وأوصافها :

لسورة الفاتحة أسماءٌ عديدة وأوصافٌ مديدة ، منها ما هو توقيفيٌّ ومنها ما هو توفيقيٌّ ، وقد عُني العلماءُ بذكرها وبيانِها ، وربما خلَط بعضُهم بين الأوصاف والأسماء والفضائل ، حتى عدَّ السيوطيُّ لها فوق العشرين اسما ، قال : "وقد وقفتُ لها على نيِّفٍ وعشرين اسما ، وذلك يدلُّ على شرفِها ، فإن كثرة الأسماءِ دالةٌ على شرف المسمَّى " [1] .

وقال الفيروز أبادي في البصائر : " أسماؤها قريبة من ثلاثين: الفاتحة، فاتحة الكتاب، الحمد، سورة الحمد، الشافية، الشفاء، سورة الشفاء، الأَساس، أَساس القرآن، أُمّ القرآن، أُمّ الكتاب، الوافية، الكافية، الصّلاة، سورة الصّلاة ، السّبع المثاني؛ لأنها تُثْنَى في كل صلاة، أَو لاشتمالها على الثَّناء على الله تعالى، أَو لتثنية نزولها، سورة الفاتحة، سورة الثناء، سورة أُمّ القرآن، سورة أُم الكتاب، سورة الأَساس، الرُّقْية، لقوله ﷺ (وما أَدراك أَنّها رُقْية) " [2] .

وسُميت السورة الكريمة **بفاتحة الكتاب** والفاتحة ديباجته ، حيث استفتح الله – تعالى – بها آخر كُتبه المنزّل على خاتم رسله ، فكانت عنوانا ودليلا على هذا الكتاب ، يطوي لنا في أوجز بيان وأيسر عبارةٍ مقاصدَه الجليلة ، ومعانيَه الجامعة ، وفاتحة الكتاب تدلُّ على مضمونه ومقصوده ، ففيها من روعةِ الاستهلالِ وحُسْنِ المطلعِ ما يُبْهِرُ البُلغاءَ ويُطربُ الأُدباء ، ومن ثَمَّ فقد أعطتنا السورةُ مقدمةً موجزة لهذا الكتاب ، تطوي لنا مقاصدَه وتمهِّد لمعانيه ، بما اشتملت عليه من كلياتٍ

---

١ – الإتقان في علوم القرآن (١ / ١٨٧)

٢– بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١ / ٨٨) وسيأتي تخريج الحديث .

وعموميات توطئةً لما يليها من تفصيل وبيان ، وهذا هو سرُّ تسميتها بأم الكتاب وأم القرآن ، ووصفها بأعظم سوَره ؛ لأنها تضمُّ مقاصده وتحوطُ بمعانيه ، ولكونها تقدِّم لنا رسالة الإسلام في كلماتٍ يسيرة ، جمعت بين المعرفة والغاية والمنهج والثمرة : معرفة الله – تعالى – وحقِّه على العباد ، والغاية التي من أجلها خُلقنا ، والمنهج الذي نترسَّم به طريقَنا نحو تحقيق هذه الغاية الأسمى ، والثمرة التي نرجوها من وراء سعينا نحو غايتنا .

وحيث نزل القرآن خطابا للإنسان وهداية له ومنهاجا ؛ فقد جاءت الفاتحةُ ببيان رسالة الإنسان في هذا الوجود ، ونظرته للكون والحياة ، والتعريف بأصله ونشأته ، والتبصِرة بآمالِهِ وطموحاتِه التي ينبغي أن ينشدَها ويسعى لها ، وبيان معالم المنهج الذي يترسَّمُه والقدوة الصالحة التي يتمثَّلُها مع التحذير من المسالك المعوجَّة والبراءة من سالكيها .

وهي أمُّ الكتاب وأمُّ القرآن ؛ لأنها جمعت مع إيجازها أصول الإيمان : الإيمان بالله – تعالى – وصفاته العلى ، والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالقدر ، والإيمان بالرسل والكتب التي أنزلها الله تعالى لتبيِّن هذا الصراط ، والإيمان بجميع العوالم الغيبية فضلا عن المشاهدة ، ومن جملة تلك العوالم : الملائكة الذين هم سفراءُ الوحي ، والإيمان بما قصَّه القرآن على وجه الإجمال والتفصيل من أحوال السابقين ومواقفهم من الصراط ومصيرهم ، فضلا عن إعلان الولاء للمهتدين والبراء من الذين عرفوا الحق فجحدوه ، فباءوا بغضب من الله ، والذين ضلُّوا عنه فتخبَّطوا في متاهات الضلال .

ومن جوامع هذه السورة الكريمة اشتمالها على حق الله – تعالى – على عباده وحقهم عليه جلَّ وعلا ، فحقه عليهم حمده وإخلاصُ العبادة له ، وحقهم عليه رعايتهم ورحمتهم ومعونتهم وهدايتهم والإنعام عليهم .

وهي **سورة الحمد** لما اشتملت عليه من محامد ، فقد استُهلّت بالحمد لله على ربوبيته لهذه العوالم ، ولما اتصف به من صفات الكمال والجلال ، وهي سورةٌ من بين خمس سور استُفتحت بالحمد .

وسميت بالسبع المثاني لأنها سبعُ آيات ، ولكونها تثنى في الصلاة مما يدلُّ على عظمتِها وجلالِها وما انطوتْ عليه من معانٍ جامعة ، جديرةٍ بأن تُكرَّرَ ، ولمسيسِ حاجة المؤمن لقراءتها مرات عديدة في يومه وليلته ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الحجر: ٨٧] ، والتعبير بالإيتاء لبيان عظمِ المنةِ وخصوصيتها ، فهي عطاءٌ لا يضارعُه عطاء ، وقرةُ عينٍ ونعيم لا ينفدُ ، وكنزٌ لا يبيدُ ، ونهرٌ مطَّرد ؛ لذا أعقب الله هذه الآية بقوله : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر: ٨٨]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي)[1] ، من هنا يظهر لنا سرُّ تسميتها بالسبع المثاني لأن آياتها نرددها في كل الصلوات ، وتكرارها للتذكير بمعانيها واستحضارها ،كذلك لتجديد العهد مع الله – تعالى – ، وحفز النفوس وشحذ الهمم وتقوية العزائم ؛كي تمضي قُدُمًا على طريق الهداية ، وفي التكرارِ أيضًا تجديد الإيمان ، وزيادته ، وفي تثنيتها إلحاحٌ في الدعاء والطلب ، وفي تكرارها شفاءٌ للأرواح ورواحٌ للقلوب وزكاةٌ للنفوس.

ومن أوصافها : سورة الرقية وسورة الأساس وسورة الشفاء ؛ لكونها أساس القرآن ، ولتأثيرها العظيم كرقية وعلاجٍ للأمراض البدنية والنفسية ، وهي محربةٌ كما سيأتي في فضائلها .

المطلب الثاني : فضائلها

أولا : أعظم سورة في القرآن :

القرآن كله عظيمٌ ، فهو كلام ربنا العظيم ، نزل بمقاصد عظيمة ، واشتمل على معانٍ كلها عظيمة ، وقارئه تتجلى له عظمة منزِّله في كل آيةٍ ، وفي كل معنى وفي كل خطاب ، وسورة الفاتحة هي أعظم السور ، لها من المزايا والفضائل ما لم يجتمع لغيرها ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى ﷺ قَالَ : كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي . فَقَالَ : (أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾) ، ثُمَّ قَالَ لِي : (لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ) ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ : أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : (﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ : هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)[2] .

يلفت النبي ﷺ هذا الصحابي إلى عظمة السورة بهذا الأسلوب المشوِّق ؛ ترغيبا في تلاوتها وحثًّا على تدبُّرها وتمثُّلها ؛ لنيل خيراتها وجني ثمراتها .

ثانيا : سورة الصلاة :

١- رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير بَابُ قَوْلِهِ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ح٤٤٢٧ .

٢ – رواه البخاري في صحيحه كِتَاب فضائل القرآن – بَاب مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ حديث ٤١١٤ .

الفاتحة سورة الصلاة يناجي بها المؤمن ربَّه في اليوم والليلة ، يبحرُ في معانيها ، ويغوصُ في دقائقِها ، ويحلِّقُ في أجوائها ، ويُرطِّبُ قلبَهُ بكلماتِها ، ويُروِّحُ فؤاده بنسماتِ لطائفها ، وهو واقفٌ بين يدي ربه في خشوعٍ ، يقرؤها في كلِّ ركعةٍ يصلِّيها فلا يزدادُ تكرارُها إلا عذوبةً وحلاوةً ، فهي السبع المثاني ، التي تُثنَّى في كلِّ صلاةٍ ، ويعاهد ربه على عبادته وحده والاستعانة به ، ويطلب الهداية منه وأن يرزقه الاستقامة ، ولأنها سورة الصلاة والمناجاة فلقد حسُن استهلالها بالحمد ، فهو خيرُ ما نستهلُّ بها مناجاةَ خالقنا وبارينا وقد خُتِمَتْ بالدعاء .

" فأوّل السورة رحمة ، وأوسطها هداية ، وآخرها نعمة. وحظ العبد من النعمة على قدر حظّه من الهداية، وحظّه منها على قدر حظّه من الرحمة، فعاد الأمر كلّه إلى نعمته ورحمته " [(١)].

وقد جرت عادة الأدباء والبلغاء من تدبيجهم خطبهم وقصائدهم بقلائد الحمد وأكاليل الثناء ، كما قال الشاعر مادحا :

أَأَذْكُرُ حاجتي أم قَدْ كَفاني ... حياؤك إن شيمتَك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفَاه عن تعرُّضه الثناءُ [(٢)].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهْيَ خِدَاجٌ – ثَلاَثًا – غَيْرُ تَمَامٍ) ، فَقِيلَ لأَبِي هُرَيْرَةَ : إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ ؟ فَقَالَ اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : حَمِدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، قَالَ : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، وَقَالَ مَرَّةً : فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قَالَ : هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ) [(٣)] .

ثالثا : سورة الشفاء والرقية :

١- الفوائد لابن القيم (١ / ٢٠) .

٢ – قالها أميةُ بنُ أبي الصلتِ يمدحُ عبدَ اللهِ بنَ جُدْعان . ينظر : عيون الأخبار لابن قتيبة (١٦٨/٣) .

٣ – رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة بَاب وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنْ الْفَاتِحَةَ وَلَا أَمْكَنَهُ تَعَلُّمَهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا حديث ٩٠٤ .

اشتملت السورة على أعظم ترياقٍ ؛ ففيها تعظيم الله ومحبته ، وقد جمعت بين الرهبة والرغبة ، وامتزجت فيها حرارةُ الخوفُ مع نسيم الرجاء ، ورَوح الإيمان مع برد اليقين ، وإخلاص العبادة مع تمحيض الاستعانة ، فكان لها تأثيرها العميق في تزكية النفوس وشفاء الأرواح وعافية الأبدان ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا ، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غَيْبٌ فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ فَرَقَاهُ فَبَرَأَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً وَسَقَانَا لَبَنًا ، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ : أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً أَوْ كُنْتَ تَرْقِي ؟ قَالَ لَا مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ ، قُلْنَا : لَا تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ أَوْ نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : (وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ ؟ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ) [1] .

فهي سورة الصلاة وسورة الرقية والشفاء ، تغمرُ صاحبَها بالسكينة وتغشاه بالطمأنينة ، حين يلهج لسانُه بحمدٍ من تفرَّد بالحمد ، ويجري على لسانه أسماء الله الحسنى التي تملأ القلب يقينا وثباتا ، وخشوعا وإجلالا وتعظيما ، ومحبةً ورجاءً ، فمالك يوم الدين هو الذي وسعت رحمته كل شيء ، هنالك يطمئن العبد على حاضره ومستقبله ، وتقرُّ عينه وينشرح صدره ويبتهج فؤادُه ، وهي سورة الشفاء فيها استحضارٌ لعظمة الله ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ واستمطارٌ لرحمته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ والخشوع له ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، والتماس العون منه وحده ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وطلب الهداية منه ، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، ومدح أهل الاستقامة ، ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ودحر وإقصاء أهل الزيغ والانحراف ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ، وحضور الملائكة عند التأمين ، وهذا يعني إقصاء وقمع الشياطين ، من هنا يتجلى لنا خصوصية هذه السورة في الرقية والشفاء ، والقرآن كلُّه شفاءٌ وترياق .

قال ابن القيم – رحمه الله – : " وَقَدْ قِيلَ إنّ مَوْضِعَ الرّقْيَةِ مِنْهَا : ﴿ إيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وَلَا رَيْبَ أَنّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ مِنْ أَقْوَى أَجْزَاءِ هَذَا الدّوَاءِ فَإِنّ فِيهِمَا مِنْ عُمُومِ التّفْوِيضِ وَالتّوَكّلِ وَالِالْتِجَاءِ وَالِاسْتِعَانَةِ وَالِافْتِقَارِ وَالطّلَبِ وَالْجَمْعِ بَيْنَ أَعْلَى الْغَايَاتِ وَهِيَ عِبَادَةُ الرّبّ وَحْدَهُ وَأَشْرَفُ الْوَسَائِلِ وَهِيَ الِاسْتِعَانَةُ بِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا ، وَلَقَدْ مَرّ بِي وَقْتٌ بِمَكّةَ سَقِمْتُ فِيهِ وَفَقَدْتُ الطّبِيبَ وَالدّوَاءَ فَكُنْت أَتَعَالَجُ بِهَا آخُذُ شَرْبَةً مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَقْرَؤُهَا عَلَيْهَا مِرَارًا ، ثُمّ أَشْرَبُهُ فَوَجَدْتُ بِذَلِكَ الْبُرْءَ التّامّ ، ثُمّ

---

١ – رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الطِّبِّ بَاب الرُّقَى بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ حديث ٤٦٢٣ ، ورواه مسلم في صحيحه كِتَاب السَّلَامِ بَاب جَوَازِ أَخْذِ الْأُجْرَةِ عَلَى الرُّقْيَةِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَذْكَارِ حديث ٤٠٨٠ . قال الإمام النووي : " قَوْله : (مَا كُنَّا نَأْبِنُهُ بِرُقْيَةِ) : هُوَ بِكَسْرِ الْبَاء وَضَمّهَا أَيْ نَظُنّهُ كَمَا سَبَقَ فِي الرِّوَايَة الَّتِي قَبْلهَا ، وَأَكْثَر مَا يُسْتَعْمَل هَذَا اللَّفْظ بِمَعْنَى نَتَّهِمهُ ، وَلَكِنَّ الْمُرَاد هُنَا نَظُنّهُ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . وَاللَّهُ أَعْلَم . " شرح النووي على صحيح مسلم ٧ /٣٤٠ .

صِرْت أَعْتَمِدُ ذَلِكَ عِنْد كَثِيرٍ مِنْ الْأَوْجَاعِ فَأَنْتَفِعُ بِهَا غَايَةَ الِانْتِفَاعِ " [1]. وقال أيضا : " وأما شهادة التجارب بذلك فهي أكثر من أن تُذكر ، وذلك في كل زمان ، وقد جرّبت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورا عجيبة ولا سيما مدة المقام بمكة ، فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة مني وذلك في أثناء الطواف وغيره ، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط ، جرّبت ذلك مرارا عديدة ، وكنت آخذ قدحا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارا فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء ، والأمر أعظم من ذلك ، ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين ، والله المستعان " [2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – قدّس الله روحه – : " تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ " [3].

رابعا : نورٌ أوتيه نبيُّنا لم يؤته أحدٌ من قبله :

كذلك تدلُّ أوصافها على مقصودها : فهي نورٌ يضيء لنا معالم الطريق إلى الله ، نورٌ لقلوبنا وبصائرنا ، نورٌ للأذهان ، نورٌ يزيدُنا هُدًى وبصيرةً نورٌ يُزيِّنُ حياتنا ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قَالَ : " بَيْنَمَا جِبْرِيلُ عليه السلام قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إذ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ : هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ " [4].. فإذا قام العبدُ للصلاة مستحضرا عظمةَ هذه السورة الكريمة وفضائلها ، مع جلالِ ورهبة الوقوف بين يدي ربه وحلاوة ولذة مناجاته ، وذوق وموجدة حديثه ، كان حريًّا بتدبر معانيها والغوص في دقائقها واجتلاء أنوارها وجني ثمارها . فأفضى القلب إلى معاني القرآن ، ووقع في رياضه المونقة وشاهد عجائبه التي تبهر العقول ، واستخرج من كنوزه وذخائره ما لا يخطر ببال .

١- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٤ / ١٦٢)

٢- مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٥٧) .

٣- نفس المرجع (١ / ٧٨) .

٤ – رواه مسلم في صحيحه كِتَاب صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا بَاب فَضْلِ الْفَاتِحَةِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْحَثِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ حديث ١٩١٣ .

المبحث الثاني : أثر تدبُّرها في صياغة الشخصية .

تمهيد

بناء الشخصية لا يقوم إلا على أسس متينة ، ومنهجيةٍ قويمة ، تراعي طبيعة الإنسان وتلبي نداء فطرته ، وتحفظ له إنسانيته ، وتجعل منه شخصا متوازنا ، نافعا لنفسه ولغيره ، محبًّا لدينه ولوطنه ولأهله وعشيرته ، هذا البناء المحكم أساسه الإيمان ، وسياجه تقوى الله ، ومنارُه رضا الله ، وعناصر هذا البناء النفسُ الإنسانية بعنصريها : الروح والجسد ، النفس الإنسانية بما تطويه بين جوانحها من قلبٍ ، وبما تفيضُ به من مشاعرَ ، لقد عجزت كلُّ النُّظم وقصرت كلُّ الفلسفات وأخفقت الأديان المحرّفة والوضعية وفشلت المذاهب والقوانين في صياغة الشخصية الإنسانية ، فلا سبيل لذلك إلا بالمنهج الرباني الذي بيّنه ربُّ العالمين من خلال الإسلام الذي ارتضاه دينا للعالمين ، ذلك الدين الذي يجمع بين العقيدة والسلوك ويربط بين العاطفة والفكر ، ويوفِّق بين العبادة والعمل ، " إنه دين حي ليس دينا عقليا يعيش في العقل أو في فلسفة أو في مكتبة ، بل عقيدة عمل وسلوك وأخلاق ، وعاطفة وشعور وذوق ، يسيطر على الفكر والمشاعر ، ويتحكم في موازين الأشياء والقيم ، إنه يسبك الإنسان سبكا جديدا " [1] .

لقد جاء القرآن لإصلاح الإنسان وتزكيته وصياغة شخصيته وصبغته كما يريده الله تعالى له ويرضيه عنه ، قال تعالى ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨] ، فالإيمان بالله – تعالى – وكتبه ورسله ، والاقتداء بهم واتباعهم هو المعلَمُ الرئيسُ للشخصية المسلمة " فالمسلم يمتاز بأنه صبغة إلهية ، وهذا يوجب علينا أن نتوجه إلى الإسلام نستمدُّ منه عقائدَنا وتصوراتنا ، ونرسم أهدافنا وغايتنا في ضوء تعاليمه ، ونقيِّمُ سلوكنا وأعمالنا وعلاقاتنا مهتدين بهديه " [2] .

إن هناك محاولاتٍ مستميتةً لانتزاع المسلم من دينه وفصله عن حياته ، وتمييع شخصيته ، أو تذويبها في قوالب غريبةٍ عن ديننا وقيمنا وأصالتنا وتاريخنا ، بدعوى التحضُّر والتطُّور ، أو تحت شعار الدمج والتغريب أو العولمة ؛ لطمس معالم هذه الشخصية ومسخها ، وإخراجها في ثيابٍ مُرقَّعة وفي صورةٍ مُزْرِيةٍ تُقَلِّد عن غير وعيٍ أعداءَ الإنسانيةِ وتسيرُ على خطاهم ، وتنهزمُ أمام أفكارِهم وتنطرحُ على طريقهم ، وترتمي في أحضانهم ، وتسلِّم لهم القياد في تبعيةٍ مُخزيةٍ وسلبيةٍ مُرْدِيَة .

١- العقيدة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة ، لأبي الحسن الندوي ص ٦٣.

٢- معالم الشخصية الإسلامية ، د. عمر سليمان الأشقر ص ١٩.

وأنى لهذه المحاولات أن تحقق أهدافها وبين أيدينا حصنٌ متينٌ ونبراس مبين ودرعٌ حصينٌ ، كتابُ ربِّنا عصمتُنا ونجاتُنا ومخرجُنا من هذا الليلِ الطويلِ ، قال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥] ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] .

ولسورة الفاتحة تأثيرٌ كبيرٌ في صياغة الشخصية المسلمة ، فهي تمدُّنا ونحن نقرؤها ليل نهار بهذا الوقود الحيوي وتلك الطاقة المتجددة من خلال ما تغرسُه فينا من محبة الله وتعظيمه وتمجيده ومعرفته وعبادته ، والاستعانة به وحده وطلب الهداية منه ، والولاء لأهل الهداية والاستقامة ، والبراء والحذر من أهل الجحود والغواية ، وهي مفتاحٌ للشخصية المسلمة ، يفتح مغاليقها ويسري إلى مركزها ، وهي زادٌ ونبراسٌ لنهوضها ، ووقودٌ حيويٌّ لانطلاقها وارتقائها ، وذلك بتلاوتها ومعايشتها وتدبُّرها ؛ إذ لا يمكن أن تتحقق هذه الخيرات وتتفتق هذه الثمرات بدون تدبُّرها والنَّظر في معانيها .

" ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ، ولا خير في فقه ليس فيه تفهم ، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر" [(١)] .

قال ابن القيم عن أولئك الذين حُرموا من التدبُّر : " وهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ولا يتنعمون بها ، وليست الصلاةُ قرةَ أعينِهم ، وليست الأوامرُ سرورَ قلوبِهم وغذاءَ أرواحهم وحياتهم ، ولهذا يسمُّونها تكاليفَ ، أي قد كُلِّفوا بها ولو سمى مدَّعٍ لمحبةِ مَلِكٍ من الملوكِ أو غيرِه ما يأمرُه به تكليفا ، وقال إني إنما أفعلُه بكُلفةٍ لم يعدّه أحدٌ محبًّا له " [(٢)] .

هذا وللأجواء أو المقامات التي تُقْرَأُ فيها السورةُ سيَّما الصلوات ، مع ما اشتملت عليه الفاتحة من طلب العون من الله والدعاء بالهداية أعظمُ الأثر في إصلاح النفس وتزكيتها ، وفي تكرار هذه السورة في اليوم والليلة إرادةٌ وتصميمٌ من العبد على طريق الهداية والاستقامة ، والإرادةُ هي الوقود اللازم لانطلاقة التغيير .

أولا : شخصٌ ربانيٌّ : إنَّ أول ما يستفتح الله – تعالى – به فاتحة كتابه بيان استحقاقه للحمد ، فهو تعالى رب الأكوان ، وهبها الوجود ، ودبَّر حياة كل موجود ، وربوبيته للعالم عامة وخاصة ، ربوبية عامة تشمل المؤمن والكافر ، المطيع والعاصي ، فهو تعالى ربُّ كل شيء ومليكه وخالقه ، ورازقه ومدبره ، وربوبية خاصة لأهل الإيمان يربّيهم ويهديهم ويحفظهم ويعلّمهم ويرشدهم ، ويشرِّع لهم ما يصلحهم

١- مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي (١ / ٢١٥) .
٢- مدارج السالكين – (١ / ٨٦) .

في معاشهم ومعادهم ، حينما يقرأ العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ يدرك أن لهذا الكون خالقا مدبّرا ، رازقا مقدِّرا يستوجب الحمد على ربوبيته لهذا العالم ، ولكل العوالم المرئية وغير المرئية ، المشاهدة والغيبية ، هو وحده الذي يشرِّع لعباده ، ومنه وحده العون والهداية ، فهو جديرٌ بأن يتفرَّد بالحمد على كمال ربوبيته ، حينما نلهج بـ ﴿ رب العالمين ﴾ نقرُّ بأن الأمر أمرُه والحكمَ حكمُه ، وأننا عبيدُه نصدرُ عن أوامره ، ونُصدِّق برسالاته .

والشخصُ الرباني غايتُهُ المنشودة رضا ربه ، ومنهاجه دينُه الذي ارتضاه لعباده ، وشعاره في هذه الحياة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ، وإيمان العبد بربوبية الله للعالم مما يزيده تعظيما ومحبة لله ، وإجلالا وتقديسا له ، ورغبة ورهبة فيه ، وخوفا ورجاء ، وثقة ويقينا ، وطمأنينة وثباتا ، كلما قرأ الفاتحة يستشعر هذه المعاني ، ويستحضرها ، وتترسَّخ لديه ، حين يعلم أن للكون ربًّا مدبِّرا حافظا ، فيمسي ويصبح قرير العين منشرح الصدر قوي الجنان ، حين يعلم بأن الله يتعهّد عباده المؤمنين بالرعاية والحفظ والهداية والتربية ، حين يوقن أنه المشرِّع لعباده ، فشريعته هي التي تجب أن تسود وكتابه رسائل لا بد من العمل بها ، وتلك من ثمرات التدبر ، أن يعيَ الناس معاني الربوبية ومقتضياتها .

قال الحسن البصريُّ – رحمه الله – : " إن من كَان قبلكم رأوا القُرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار " [١].

وقال الغزالي – رحمه الله – : " قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتتنا من قِبل ربنا ﷻ بعهوده نتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات ، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات " [٢]

ثانيا : شخصيةٌ مؤمنةٌ : تستوعب سورةُ الفاتحة مع إيجازِها أركانَ الإيمان ، تبيِّنُه وترسِّخُه ، وتروِي شجرتَه الطيبةَ ؛ لتتغلغل جذورُها في قلب المؤمن ، وتمتدَّ أغصانُها وتخضرَّ أوراقُها وتزهِرُ وتُثْمِر ، ففي الفاتحة الإيمان بالله ربا ، ذي المجد والكمال والعظمة والجلال ، المحمود ولا يزال على ما أبداه من النعم وأسداه من الكرم ، والإيمان بالعوالم التي خلقها ربُّنا الغيبية والمشاهدة ، والإيمان بالرسل والكتب ،كما يتجلى في ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ والإيمان بالقدر ، فالله –تعالى – رب العالمين مدبِّر هذه العوالم ، نخلصُ له العبادة ونستعين به على سائر أمورنا ونستهديه ، وهكذا يعيشُ قارئُ الفاتحة في أجواءٍ إيمانية تتجدد مع كل تلاوة وتدبُّرٍ ، تشحذُ طاقته ، وتعمرُ قلبه ، وتمدُّه بالزاد ، وتحفِزُه على العمل الصالح الذي يعود بالخير له ولمجتمعه ، وتحصِّنُه من الفتنِ والأهواءِ ، والأباطيل والأوهام .

١– التبيان في آداب حملة القرآن ص ٢٨ .

٢– إحياء علوم الدين للغزالي (١ / ٢٨٥).

إن لكل سورة قرآنيةٍ سَمْتَها في عرضِ العقيدة – تلك الركيزةُ الأساسيةُ للقرآن الكريم والمقصود الأول من نزوله ، والمنهج الرباني لصياغة الشخصية – والمتدبر لسورة الفاتحة يلحظُ سِمَتها الفريدة في عرض عقيدة التوحيد وتقريرها ، وكيف جمعت السورة الكريمة بين العلم والإيمان ، بين المعرفة واللزوم ، بين الاعتقاد والسلوك ، بين المحبة والتعظيم ، بين الرجاء والخوف ، بين الرغبة والرهبة ، بين الجلال والجمال ، بين الوسيلة والقصد ، بين العبادة والاستعانة ، بين الولاء والبراء ، بين حقِّ الله وحقِّ العباد ، بين أسماء الله الجامعة وحظ العبد منها .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ : " أَلا تَرَوْنَ رَحِمَكُمْ اللهُ إِلَى مَوْلاكُمْ الْكَرِيْمِ ؛ كَيْفَ يَحُثُّ خَلْقَهَ عَلَى أَنْ يَتَدَبَّرُوا كَلامَهُ ، وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلامَهُ عَرَفَ الرَّبَّ ﷻ ، وَعَرَفَ عَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَعَرَفَ عَظِيمَ تَفَضُّلِهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ ، وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ عِبَادَتِهِ ، فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْوَاجِبَ ، فَحَذِرَ مِمَّا حَذَّرَهُ مَوْلاهُ الْكَرِيْمُ ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ فِيهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ عِنْدَ تِلاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ ، وَعِنْدَ اسْتِمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ شِفَاءً ، فَاسْتَغْنَى بِلا مَالٍ ، وَعَزَّ بِلا عَشِيرَةٍ ، وأَنِسَ بِمَا يَسْتَوحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ ، وَكَانَ هَمُّهُ عِنْدَ تِلاوَةِ السُّورَةِ إِذَا افْتَتَحَهَا : مَتَّى أَتَّعِظُ بِمَا أَتْلُوهُ ؟ ، وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ مَتَّى أَخْتِمُ السُّورَةَ ؟ ، وَإِنَّمَا مُرَادُهُ : مَتَّى أَعْقِلُ عَنْ اللهِ الْخِطَابَ ؟ ، مَتَّى أَزْدَجِرُ ؟ ، مَتَّى أَعْتَبِرُ ؟ ، لأَنَّ تِلاوَتَهُ لِلْقُرْآنِ عِبَادَةٌ ، وَالْعِبَادَةُ لا تَكُونُ بِغَفْلَةٍ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ " [1] .

ثالثا : شخصٌ رحيمٌ : إن أول صفة إلهية استفتح الله بها كتابه صفة الرحمة ، ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ ، وقد استوقف الاسمان الجليلان عامة المفسرين واستفرغوا وسعهم في بيان الفرق بين الاسمين ، على أقوال عديدة ، منها: أن الرحمن في الدنيا والرحيم في الآخرة، الرحمن بالمؤمن والكافر والبر والفاجر ، الرحيم بعباده المؤمنين ، ولا شك في أن ورود اسمين جليلين يجتمعان في وصفٍ واحدٍ ، وهو الرحمة مما يقرِّر ويؤكد رحمة الله – تعالى – بعباده المؤمنين ، قال ابن عباس :"ذكر أحدهما بعد الآخر تطميعا لقلوب الراغبين إليه " [2]، وفي هذا ترغيبٌ للمؤمنين في التعرُّضِ لرحماتِ اللهِ – تعالى – واستجلابِها بالطاعاتِ والقُربات ، وبالتراحُم فيما بينهم ، ولقد بيَّن الله ذلك في كتابه الكريم ، تأمَّلْ قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١] فإن الإيمان والإخاء والتناصح من الأسباب الجالبة لرحمة الله ، وفي السنة النبوية ربطٌ بين رحمة الله وبين التراحم بين العباد وصلة الأرحام ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

١- أخلاق حملة القرآن للآجري (ص٣)

٢- معالم التنزيل للبغوي – (١ / ٧١) .

(قَالَ اللَّهُ : أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ) [1].وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ : (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)[2]، فحظُّ العبد من الاسمين الجليلين أن يمتلئ قلبُه رجاءً وطمعا في رحمة ربه وأن يزداد محبةً له وشوقا للقائه ، وأن يتخلّق بخُلُق الرحمة مع عباد الله ، والمتدبِّرُ في السورة الكريمة يزداد بقراءتها رقَّةً ورحمةً ولطفا ، وباستحضار واستشعار رحمة الله كلما قرأنا الفاتحة ما يزيدنا بهجة وأنسا وطمأنينة وبِشرا ، وفي تكرار الاسمين الجليلين بتدبُّرٍ وخشوعٍ استمطارٌ واستجلابٌ لرحمة الله — تعالى – .

رابعا : شخصٌ عادلٌ : ترسِّخُ هذه السورةُ العظيمةُ قواعدَ العدلِ بطريقةٍ فريدةٍ ، تأمَّلْ قولَهُ تعالَى : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ فإن وجودَ هذا اليومِ دليلٌ على العدل الإلهي ودافع إلى تحقيق العدالة في الدنيا قبل الحساب في الآخرة ، وإن تفرُّدَه تعالى بملك هذا اليوم ، وورود قراءتين متواترتين (مالك) ، (ملك) [3] مما يزيد المؤمن يقينا بالعدل المطلق في هذا اليوم ، فالملك التامُّ المطلق في هذا اليوم لله — تعالى – ، العظمة والسلطان لله وحده ، ومِلكُ هذا اليوم لله وحده ، وفي هذا ما يزيدُ المؤمن يقينا بالعدالة المطلقة في هذا اليوم ، وفيه تذكيرٌ وتحذيرٌ لكل من ظلم أو استبدَّ أن يراجع نفسه ويتوب لربه ، ويأتي التعبير عن يوم القيامة بـ (يوم الدين) أي يوم الحساب والقصاص والجزاء ، والاقتران بين رحمة الله — تعالى – ومُلكه المطلق لهذا اليوم تثبيتٌ للمؤمنين ، وتشويقٌ للمحبين ، وتسليةٌ للمبتلين ، وتعزيةٌ للمظلومين والمستضعفين ، وإنذارٌ للمفرِّطين والمفرطِين ، وردعٌ للظالمين ، وزجرٌ للعاصين ، وترهيبٌ للمجرمين ، الإيمان بيوم الدين ينير الطريق ، ويقوِّم السلوك ، ويثبِّتُ الخائف ، ويسلِّي المبتلى ، ويجلي الأحزان ، ويهدي الحيران ، ويهذِّب النفوس ، ويداوي القلوب ، ويضبط السلوك ، ويقيم ميزان العدل ، ويرسِّخُ القيم ، ويوحِّد الغايات ، والمؤمن في حاجة إلى الإكثار من ذكر هذا اليوم ، إلى استحضاره في كل وقت ، إلى معايشته في كلِّ حالٍ ، وهذا دأبُ السلف يكثرون من ذكر الآخرة في جميع الأحوال ، فمن كان في ضيقٍ ومحنة فإن ذكر الآخرة تسلية للقلوب وبرد للأكباد ، ومن كان في حالة نعمةٍ ومنحةٍ فإن ذكر الآخرة مما يحفظه من الاغترار والغفلة ، ومن كان مقيما على معصيةٍ فإن ذكر يوم الدين يزجرُه ويرهِّبه ، ومن كان على طاعةٍ ففي ذكر يوم الدين ما يحفزه ويرغِّبه ، ذكر القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة : " أن عمر بن عبد العزيز ﷺ كان يجمع العلماء فيتذاكرون الموت ، والقيامة ، والآخرة ،

١- رواه أبو داود في السنن (٢ / ٥٨) باب فِي صِلَةِ الرَّحِمِ حديث ١٦٩٦ ورواه أحمد في المسند (١ / ١٩١) وإسناده صحيح.

٢- رواه أبو داود في السنن باب في الرحمة (٤ / ٤٤٠) ح والترمذي في السنن أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ بَابُ مَا جَاءَ فِي رَحْمَةِ الْمُسْلِمِينَ (٣ / ٣٨٨) ٤٩٤٣وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

٣- قرأ عاصم والكسائي : (ملك يوم الدين) بألف ، وقرأ الباقون (ملك) بغير ألف . السبعة في القراءات (١ / ١٠٤) ، والحجة في القراءات السبع (١ / ٦٢) .

فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة ، وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة : الرحيل . الرحيل . فلما تُوفي فقد صوتَه أميرُ المدينة فسأل عنه . فقيل : إنه قد مات فقال :

ما زال يلهجُ بالرحيلِ وذكرِهِ حتى أناخ ببابِهِ الجَمَّالُ

فأصابَهُ متيقِّظاً متشمِّراً ذا أهبةٍ لم تلهه الآمالُ " [1]

قال الرازي : " وأما قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فاعلم أن الإنسان كالمسافر في هذه الدنيا ، وسنُوُّه كالفراسخ ، وشهورُه كالأميال ، وأنفاسُه كالخطواتِ ، ومقصدُه الوصول إلى عالم أخراه ؛ لأن هناك يحصل الفوز بالباقيات الصالحات ، فإذا شاهد في الطريق أنواع هذه العجائب في ملكوت الأرض والسموات فلينظر أنه كيف يكون عجائب حال عالم الآخرة في الغبطة والبهجة والسعادة" [2]

وفي هذا من إصلاح النفس والمجتمع وتطهيره ما يصل إلى المقصود ، ويحقق الأمل المنشود ، فالإيمان باليوم الآخر ركيزةٌ من ركائز الإصلاح ، ومنطلقٌ لكلِّ خيرٍ ، حيث يسعى العبد لإصلاح آخرته بإصلاح دينه ودنياه ، ويدَّخر من الأعمال الصالحات ما يُثقل موازينه ويرفع درجته ، بل ويتنافس إلى الخيرات لتكون ذخيرةً له ، ولقد ذكر الله في مقدمة سورة البقرة أثر الإيمان بالآخرة في تحقيق الفلاح قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١-٥] .

بينما ذكر تعالى ضلال وتخبط من لم يؤمن بهذا اليوم ، قال تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ۝٨ ﴾ [سبأ: ٨] .

فالذين أنكروا الآخرة أو غفلوا عنها لا يقيمون للعدل ميزانا ولا يحملون للحساب همًّا ، فتراهم يجترئون على المحارم ويعتدون على حدود الله ، ويهتكون الأستار ويضيِّعون الأعمار ، قال تعالى عن المطففين الذين يطففون في الكيل والموازين وسائر الحقوق : ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ١ - ٦] ، بينما الذين آمنوا بالآخرة وتذاكروها لا يكتفون بإقامة موازين العدل بل يحسنون إلى الآخرين وإن لم يحسنوا إليهم ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا

١- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (٧) بتصرف .

٢- التفسير الكبير للرازي (١ / ١٣٦) .

عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴾ [الإنسان: ٥ – ١٠] .

إن الإيمان بالآخرة واليقين بالرجوع لرب العالمين يدفع لصالح الأعمال ، ويُذكي روح التنافس الشريف على الخيرات ، ويصقلُ النفوس ويزيدها إشراقا ، ويُفجر الطاقات ، ويشحذُ الهمم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ – ٦١] .

وإن عبدا يتذاكر الآخرة في يومه وليلته ويضع نصب عينيه موازين العدل الإلهي الأخروي لحريٌّ بأن يتحرى العدالة ويجتهد في ترسيخها ، وإزاحة كل ما يقف عقبة في طريقها قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ﴾ [النساء: ١٣٥] .

فلا يكفي للمسلم أن يكون عادلا ، بل إنه حارسٌ للعدالة ، داعٍ إليها يحميها بروحه ودمه .

خامسا : شخصٌ متحرِّرٌ : يكافحُ من أجل الحرية ويناضلُ لنيلها والمحافظة عليها ، مهما كلَّفه ذلك من تضحياتٍ ، فالحريةُ في نظره من أسمى الأمنيات ، الحرية غايةٌ إنسانيةٌ نبيلةٌ ، وقيمةٌ عظيمةٌ يجودُ الإنسان في سبيلها بمهجته ، ويضحي في سبيل تحقيقها بماله وراحته ، فإذا ناقشنا مفهوم الحرية نجد تباينا كبيرا بين الناس في تحديدها وفهمها ، نظرا لاختلاف العقول وتباين الأهواء ، حتى فسرها البعضُ بالتحرر من القيم والأخلاق التي تضبط سلوك الإنسان وتميزه ، ويرونها فوضى وعبثا بلا نظامٍ أو منهجٍ حقٍّ يهذِّبها ويسمو بها ، ويظنون أنهم أحرار بينما هم في الواقع وإن لم يشعروا عبيدٌ لشهواتهم ، عبيدٌ لأهوائهم ، مثقلون بقيودِ العادات ومغارم التقاليد الراكدة ، وتكاليف التقاليد الوافدة ، يرسفون في أغلال الأديان الباطلة ، أو يزجُّون بأنفسهم في سجون الفلسفات الهدَّامة المظلمة ، أو يُساقون كالقطيع خلف رُعاةِ الضلال وسدنةِ الكفرِ في مذلةٍ وهوانٍ ، أو يطلقون العنان لشهواتهم التي تكبِّلهم وتعرقلُ انطلاقهم نحو السموِّ والارتقاء ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠ – ١٧١].

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]

أو يخضعون للسادة والكبراء الذين يقودونهم إلى الجحيم فيتبرءون منهم ولكن بعد فوات الأوان ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧ – ٦٨] .

أو يشركون بالله غيره من معبوداتٍ أو أعراضٍ ، فيعيشون في شتاتٍ عجيبٍ وتناقضٍ مريبٍ ، ونزاعٍ نفسيٍّ ، وعراكٍ داخليٍّ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٢٩]

بينما الحرية الحقيقية في إخلاص العبودية لله – تعالى – والاستعانة به وحده ، نقرأ في الفاتحة : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ فنعلن ليل نهار تحرّرنا من عبودية غير الله ، وإيماننا بعبادة الله وحده ، فهي عزّنا وشرفنا ، لا تستهوينا فلسفاتٌ ضالة ، ولا تغرُّنا شعاراتٌ برَّاقةٌ ، ولا تستبدُّ بنا أوهامٌ وخرافاتٌ ، ولا تخدعنا بهارج زائفة ، إن عبادة الله — تعالى – كما أنها غايةُ وجودنا ومحور حياتنا فهي أيضا التحرر الحقيقي ، وبهذا التحرُّر الحقيقي ينطلق المؤمن نحو المعالي ، وينافس في الخيرات ، ويرتاحُ بالُه ، ويجتمعُ قلبُه ، وتشرقُ روحه.

وبسبب غياب المفهوم الصحيح للعبودية والحرية عانت كثيرٌ من المجتمعات صنوفَ الظلم والقهر والأسى والاستبداد ، فما أحوجنا أن نقف وقفة متأنية أمام ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ نعبد الله وحده ونستعين به .

لقد أدركت أمُّ مريم معنى الحرية فتمنَّت لجنينها أن يعيش حرا : ﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ [آل عمران: ٣٥] خالصا لوجهك مقيما على طاعتك مخلصا لك ، عاكفا على عبادتك .

سادسا : عابدٌ لربه : سورة الفاتحة متضمِّنةٌ لأجلِّ الغايات وأفضل الوسائل ، فأجلُّ الغايات عبوديته وأفضل الوسائل إعانته فلا معبود يستحق العبادة إلا هو ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات وإعانته أجل الوسائل ، وحينما نقرأ : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ندرك أن مهمة العبد ووظيفته الأساسية في هذا الكون ومحور حياته عبادة الله – تعالى – وحده ، ودلَّ تقديم المفعول (إياك) على الاختصاص فلا معبود سواه تعالى ، والعبودية هي مطلق الطاعة لله — تعالى – ، فتشمل العبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج والدعاء والذكر ، وتشمل غيرها فطلب العلم النافع عبادة والجهاد عبادة والعمل الصالح الذي يعود بالنفع للمجتمع عبادة ، بل حياة الإنسان كلها عبادة ، يقظته ونومه ، فراغه

وشغله ، صحته وسقمه ، أفراحُه وأتراحهُ ، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ، إن المؤمن يستحضر رسالته في هذا الوجود ، يتذكر مهمته التي من أجلها خُلقَ ، ينشدُ غاية وجوده كلما قرأ سورة الفاتحة ؛ ليظل على يقظةٍ ووعي وإدراكٍ لمهمته ورسالته ، فإذا كانت العبادة محور حياة المسلم ورسالته عاش مطمئن القلب ، هادئ البال ، طيِّب النفس ، مستقيما على طريق الحقِّ ، يحققُ التقدمَ المنشود والنهوضَ المأمولَ والرُّقي الذي يتطلع إليه ، قال القشيري : " ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ العبادة نزهة القاصدين ، ومستروح المريدين ، ومربع الأنس للمحبين ، ومرتع البهجة للعارفين . بها قُرَّةُ أعينهم ، وفيها مسرة قلوبهم ، ومنها راحة أرواحهم . وإليه أشار ﷺ بقوله : (أرِحنا بها يا بلال) [1] " [2] .

إننا في كل قراءة للفاتحة نراجع أنفسنا ونعرض أعمالنا على كتاب الله : هل قمنا بواجب العبادة ؟ قال الحسن : " رَحِمَ اللهُ عَبْدَاً عَرَضَ نَفْسَهُ ، وَعَمْلَهُ عَلَى كِتَابِ اللهِ ، فَإِنَّ وَافَقَ كِتَابَ اللهِ حَمِدَ اللهَ ، وَسَأَلَهُ الزِّيَادَةَ ، وَإِنْ خَالَفَ كِتَابَ اللهِ أَعْتَبَ نَفْسَهُ ، وَرَجَعَ مِنْ قَرِيبٍ " [3] .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : " فيا ويح من يكذب على ربه وهو يناجيه فيقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وإنما يقصد غيره بالعبادة ، يتعهد لربه ويناجيه : لا أعبد إلا أنت وهو خائن لعهده ، إلا أن يقصد بكلامه الدعاء والطلب للوفيق والإعانة " [4] .

سابعا : يعملُ في جماعةٍ : من معالم شخصية المسلم أنه مؤهلٌ للعمل في الجماعة لا يعرف الأنانية ولا الأثرة ، ولا العزلة عن المجتمع ، بل يهضم حظَّ النفس في سبيل الصالح للجماعة المسلمة التي يذوب فيها وينتمي إليها ، وهذه سورة الفاتحة ، مناجاةٌ مع الله — تعالى – بلسان الجماعة وليس بلسان الفرد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ لتغرس في نفس المؤمن روح الأخوّة ، وعُرى المحبة ، وأصول الوحدة ، وحدة الكلمة ، والعقيدة ، وحدة الرسالة ، وحدة العبادة ، وحدة المنهج ، وحدة الغاية والوسائل ، وحدة الرؤية ، وحدة الفكر والمشاعر ، وحدة الطموحات والآمال ، وحدة الأمة ، وحدة التصور لهذا الكون ، حين يقرأ الإمام الفاتحة وينصت إليه المأمومون خاشعين ، وقد توحدت مشاعرهم ومطالبهم ، تأمل في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

١- رواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب ، ورواه أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) ، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٦٢١٥) ٢٧٧/٦.

٢- لطائف الإشارات للإمام القشيري ٤٩/١ باختصار.

٣- أخلاق حملة القرآن للآجري (ص٤) .

٤- بدائع التفسير ١ / ٢١٠ .

نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ " كأن العبد يقول : إلهي ما بلغت عبادتي إلى حيث أستحق أن أذكرها وحدها ؛ لأنها ممزوجة بجهات التقصير ، ولكني أخلطها بعبادات جميع العابدين ، وأذكر الكل بعبارة واحدة ، وأقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، إن الرجل إذا باع من غيره عشرة من العبيد ، فالمشتري إما أن يقبل الكل أو لا يقبل واحدا منها ، وليس له أن يقبل البعض دون البعض في تلك الصفقة ، فكذا هنا إذا قال العبد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فقد عرض على حضرة الله جميع عبادات العابدين فلا يليق بكرمه أن يميز البعض عن البعض ويقبل البعض دون البعض ، فإما أن يرد الكلَّ وهو غير جائز ؛ لأن قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ دخل فيه عبادات الملائكة وعبادات الأنبياء والأولياء ، وإما أن يقبل الكل وحينئذ تصير عبادة هذا القائل مقبولة ببركة قبول عبادة غيره ، والتقدير كأن العبد يقول : إلهي إن لم تكن عبادتي مقبولة فلا تردَّني لأني لست بوحيد في هذه العبادة ، بل نحن كثيرون فإن لم أستحق الإجابة والقبول ، فأتشفع إليك بعبادات سائر المتعبِّدين فأجِبني" [1] .

كذلك الأمر في طلب الهداية بصيغة الجمع (اهدنا) لأنها أقرب إلى الإجابة من (اهدني) " فالدعاء كلما كان أعم كان إلى الإجابة أقرب ، والمؤمن لا يطلب الهداية لنفسه فحسب بل يطلبها أيضا لجميع المؤمن ، وفي هذا ما يدل على محبته لإخوانه وحرصه على نيلهم الخيرات ، والدعاء لجماعة المؤمنين أرجى للقبول وأقرب إلى الإجابة .

وفي توحيد العبادة والاستعانة أقوى رابط من روابط المجتمع المسلم وأوثق العُرى التي يستمسكُ بها .

وفي التعبير ب (نعبد) ، و (نستعين) بيان لوحدة المشاعر حتى صار الفرد يتكلم باسم الجماعة ويعبِّر عن حالها ، فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، وهم كالجسد الواحد ، والبنيان الواحد ، وتلك أسمى صور الوحدة ، وحدة القلوب ووحدة الخواطر .

وفي طلب الهداية إلى الصراط المستقيم دليلُ حرصِ المسلمِ على وحدة الصف وجمع الشمل على صراط واحد ومنهج واحد ، فإن الناكبين عن الصراط المستقيم تتشعَّبُ بهم الطرقُ وتتبلبلُ الأفكارُ وتتفرعُ السُّبُل ، فتحلُّ الفرقة ويقعُ التباعد ، عن ابن مسعود ﷺ قَالَ: : خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ : (هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا) ، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: (هَذِهِ السُّبُلُ ، لَيْسَ مِنْهَا

١- التفسير الكبير للرازي (١ / ٢٠١) بتصرف .

سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ) ثُمَّ قَرَأَ :﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٣]) [١] .

وفي طلب المؤمن الهداية له ولجماعة المسلمين دليلٌ على سلامة صدره ونقاء سريرته وطهارة قلبه ، حيث يطلبُ لإخوانه ما يطلبُ لنفسه .

وفي قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ بيان لمعالم هذا الطريق وأنه ليس طريقا فرديًّا ، بل طريقٌ جماعيٌّ تجتمع عليه القلوب وتتآلف الأرواح .

متواضع : من سمات الشخصية المسلمة التواضع ، تأمل ذلك في سورة الفاتحة حين يناجي العبد ربه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال ابن القيم – رحمه الله – : " ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد ترامیا به إلى التلف ولابد ، وهما الرياء والكبر ؛ فدواء الرياء بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؛ وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: " ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تدفع الرياء ، و﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تدفع الكبرياء " [٢] .

"فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه ورفل في أثواب العافية ، وتمت عليه النعمة ، وكان من المنعم عليهم غير المغضوب عليهم ، وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ، والضالين وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه ، وحُق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض " [٣] .

كما أن طلب المؤمن للهداية بضمير الجمع لا الإفراد فيه لطيفةٌ سبق ذكرها ، وهي استشعار المؤمن بأن عمله لا يرقى إلا بأعمال إخوانه ، ودعاؤه لا يرفع إلا مشفوعا بدعوات إخوانه فإذا كان في الصلوات المكتوبة شُفع الدعاء بتأمين الملائكة الذين يشهدون عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا ؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) [٤] .

١- رواه الإمام أحمد في المسند (١ / ٤٦٥) ، والحاكم في المستدرك (٢ / ٣٤٨) وقال هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ووافقه الذهبي ، و الدارمي في السنن ٢٠٢ .

٢- مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٥٤) .

٣- نفس المرجع – (١ / ٥٤) .

٤- رواه البخاري في صحيحه بَاب جَهْرِ الْإِمَامِ بِالتَّأْمِينِ حديث ٧٤٧ ، ومسلم في صحيحه ، الصلاة باب التسميع والتحميد والتأمين حديث ٤١٠.

ففي هذا التعبير تواضع من العبد وذل واعتراف بالتقصير؛ فهو يرى عبادته قاصرة ضعيفة فيتكثر بعبادة إخوانه من المؤمنين .

والإتيان بضمير الجمع في الموضعين ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أحسن وأفخم فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب – تعالى – وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته ، فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرُّون لك بالعبودية ، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه : نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك ، فيكون هذا أحسن وأعظم موقعا عند الملك ..." [1] .

ثامنا : شخصٌ طموح راقٍ : لا يمكن لمسلم أن يحيا بدون غاية كبرى يطمح إليها ، ومثُلٍ يقتدي بها ، والطموح أن يحيا الإنسان لغاية نبيلة ، ويسعى لهدف منشود ، وتتوق نفسُه إلى معالي الرُّتب ، ويُحلِّق فؤادُه في قمم النجاح ، وللمسلم مطالبه التي يجددها ويرفعها لربه صباح مساء ، وأهمها الهداية إلى الصراط المستقيم ، لينال الفلاح في الدارين ، يتمنى ذلك لنفسه ولإخوانه ، ويطمح إلى السير على درب الأنبياء والصالحين الذين سبقوا ، يطمح أن يكون من الذين أنعم الله عليهم بوجوه الإنعام ، فرضا الله تعالى أسمى الغايات فالطموح زاد السالكين ، ونبراس السائرين ، وإنسانٌ بلا طموحٍ عُليا إنسانٌ خاملٌ قاعدٌ عن المعالِي ، وسورة الفاتحة تبعث الأمل في النفوس وتشحذ الهمم ، وهذه الطموح التي ينشدها المؤمن واقعيةٌ حقيقيةٌ يمكن تحقيقها ، فقد سُبِقَ إليها ، ولذا أضيف الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لبيان أن هناك من سلك هذا الطريق وسبق إليه ، وأن سلوكه أمرٌ واقعيٌّ ، وأنه توفيقٌ من الله تعالى وإنعامٌ ، وأن لهذا الطريق دليلا وحاديًا "... إذ لا بد فيه من دليل ، وإلا ضلّ سالكها عن سواء السبيل :

وَإِنَّمَا القَوْمُ مُسَافِرُونَ... لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونَ

فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيل... ذِي بَصَرٍ بالسَّيْرِ وَالْمَقِيلِ

قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَ... لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَ [2]

كان عمر بن الخطاب ﷺ يخاطب حاملي كتاب الله بقوله: " يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق ، فاستبقوا الخيرات لا تكونوا عيالا على الناس " [3].

١- بدائع الفوائد – (٣ / ٥٨)

٢- البحر المديد لابن عجيبة (١ / ٣٢) بتصرف والأبيات لابن البنا .

٣- ذكره النووي في التبيان (ص ٢٩).

تاسعا : وسطي : الإنسان في حاجة إلى الصراط المستقيم في كل خطوة يخطوها ، وفي كل خطرة وفي كل نفس ، ولا يكاد يسلم في حياته من الوقوع بين جنبتي الإفراط والتفريط فهو في حاجة للوسطية والاستقامة ، في حاجة للمنهج الواضح الوسطي المعتدل من هنا كان دعاء المؤمنين : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الطريق الواضح المستقيم الذي يتسع للجميع ، الطريق اليسير المختصر ، الطريق المطروق الآمن ، إنها دعوة لاستقامة الفرد واستقامة الجماعة ، وهدايتها لما فيه صلاحها وخيرُها .

" فلا بدَّ من معرفةِ العدلِ الذي هو الخطُّ المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في الأعمال الشهوانية وفي الأعمال الغضبية ، وفي كيفية إنفاق المال فالمؤمن يطلب من الله — تعالى – أن يهديه إلى الصراط المستقيم الذي هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال " [1] .

إن ما بين مكارم الأخلاق وحميد الخصال خيوطٌ دقيقة لا يوفَّقُ إلى ملاحظتها إلا من هداه الله –تعالى – وبصَّره ، إن التوسط والاعتدال ميزانٌ دقيقٌ لا يدركه إلا ذو بصيرةٍ نافذةٍ وحكمةٍ بالغةٍ ؛ لذا كان طلب الهداية إلى الصراط المستقيم من الله – تعالى وحده – ، إن التوازن بين مطالب الروح والجسد ونداء العقل والقلب ، والاعتدال في الأخلاق والسلوك ، من سمات الشخصية المتميزة .

والصراط المستقيم هو الوسط ، فلا غلو ولا تقصير ولا إفراط ولا تفريط ، ولا تشدد ولا تساهل ، "وفي دعاء المؤمنين بأن يهديهم اللّه الصراط المستقيم ، ويجنبهم صراط المغضوب عليهم ، والضالين عن الطريق القويم . في هذا الدعاء غاية في تحرّي الطريق إلى اللّه ، والتماسه مستقيما خالص الاستقامة ، بعيدا عن مزالق المفتونين في دينهم ، والمنحرفين عن سواء السبيل " [2] .

وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية ؛ لأن الألطاف والهدايات من اللّه — تعالى – لا تتناهى [3] .

عاشرا : شخصيةٌ متوازنة : من ثمرات تلاوة الفاتحة وتدبرها تحقيق التوازن في الشخصية : التوازن بين مطالب الروح والجسد ، التوازن بين العقل والعاطفة ، التوازن بين الفكر والوجدان ، التوازن بين الخوف والرجاء ، التوازن بين الفرد والجماعة ، التوازن بين المعرفة والسلوك ، التوازن بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة ، التوازن بين الحقوق والواجبات ، ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ .

١- التفسير الكبير للرازي (١ / ٢٠٦) .
٢- معالم التنزيل للبغوي (١ / ٧٥).
٣- معالم التنزيل للبغوي (١ / ٧٧) .

فإذا توازنت هذه الأمور وانضبطت في مسارها الصحيح كان الفلاح وتحقق النجاحُ ، ولا شك أن طلب الاستقامة وهي السير على الطريق القويم المعتدل الواضح مما يحقق هذا التوازن في حياة الإنسان ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ .

حادي عشر : إيجابي : تلاوة هذه السورة الكريمة وتدبُّرها مما يساهم في صياغة الشخصية الإيجابية ، الإيجابية في النظرة للكون والحياة : فالمؤمن يوقنُ بربوبية الله للكون خلقا وملكا ورزقا وتدبيرا وتصريفا ، ويعرف قيمة الحياة فيعمرها بالصلاح والطاعة ، ويعلم أن للكون نهاية كما أن له بدايةً ، فهو على بينة من أمره .

الإيجابية في العمل والعطاء : فالمؤمن يتذكر دائما أن هناك يوما للجزاء ، وأن مالك هذا اليوم العظيم هو المستحق للمحامد كلها ، ومجيء ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بين ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ و ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، مما يزيد المؤمن تفاؤلا واستبشارا وتشوُّقا لما ينتظره من رحمات ونفحات ، فيحثُّ الخُطى ويغذُّ السيرَ إلى الخير ، لينالَ رحمته تعالى في الدارين .

الإيجابية في المداومة على العبادة لا يملُّ من الطاعات : كما يفيد التعبير بالفعل المضارع (نعبد) المداومة والمواظبة على عبادة الله وحده ، الإيجابية في طلب العون من الله – تعالى – على العبادة والعمل الصالح ، فلا يعرف الإحباط أو الكسل ، أو اليأس أو الملل ، بل إن عبادته لله تزيده نشاطا وهمة وإقبالا ، واستعانته بالله تزيده تثبيتا ويقينا وتيسر له العسير وتذلل له الصعاب .

الإيجابية في حبه للخير وحرصه عليه لنفسه ولإخوانه المؤمنين : فيطلب الاستعانة للجميع والهداية للجميع .

الإيجابية في تقويم الذات والمراجعات : فكلما قرأ : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ يراجع نفسه هل هو عبدا لله حقا ؟ هل يجرِّد الاستعانة لله وحده ؟

وكأني بالقارئ حين يقرأ : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ يذوب شوقا وحنينا إلى أولئك الركب الذين سبقوا على هذا الصراط ويجدُّ في السير على دربهم ويرجو اللحاق بهم ، وهذا يحمله على متابعة أخبارهم والعناية بأحوالهم وتحري مناقبهم وتتبع فضائلهم ، فإذا مرّ على ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ تبرَّأ منهم وتعوَّذَ بالله من مسالكِهم الملتوية ودروبِهم المتشعبةِ في الضلال والتِّيه ، فكان على حذرٍ من الفرقتين ، الذين عرفوا الحق فلم يعملوا به ، والذين ضلوا عنه وزاغت قلوبهم ، وهذا يحمله على معرفة أحوالهم وعواقبهم للحذر منهم ومخالفتهم ، والعظة والاعتبار .

الإيجابية في النصح لإخوانه والتأسي بالصالحين : وإن عزَّ بهم الزمان وسلوك طريقهم وإن قل السالكون ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦] . وقال الفُضَيْل بن عِياض – رحمه الله – : " لا تستوحشْ طرقَ الهدى لقلّة أهلها، ولا تغترّ بكثرة الهالكين "[1] .

الايجابية في الثبات على الحق والمضي قُدما على طريقه .

الإيجابية : في البراء من أهل الجحود والضلال وإن علا بنيانهم وكثر نفيرُهم .

ثاني عشر : شخصية سوية : الفاتحة سورة الرقية والشفاء من أسقام الأبدان واعتلال الأرواح وأمراض القلوب ، بما تغرسه من أصول الإيمان وما تجدِّده ، وما ترسِّخهُ ، والإيمان حصن حصينٌ وركنٌ ركينٌ ، والفاتحةُ شفاءٌ للعقول يجد الإنسان فيها الإجابة الشافية عما حار فيه الفلاسفةُ والطبيعيون ووصلوا بفلسفتهم وبحثهم إلى طرق مسدودة ، من أين جئنا ؟ وإلى أين نمضي ؟ وما هي ثمرة وجودنا وغايته ؟ وكيف نسلك طريق النجاة ؟ كل هذه التساؤلات الحائرة نقرأ في الفاتحة أجوبتها الكافية ، أما إذا لم يجد الإنسان إجابتها الصحيحة فإنه يعيش في قلقٍ وحيرةٍ وكآبةٍ وهمٍّ ينعكسُ على سلوكه وتصرُّفاته .

شخصيةٌ سوية : على بيِّنة من أمرها وبصيرة من ربها وثقة في طريقها ، ومحبةٍ ونصحٍ لأهل الإيمان ، وموالاة لهم وبراءٍ من أهل الجحود والزيغ .

شخصية سوية راجيةٌ لرحمة ربها ، مطمئنةٌ لحكمه ، راضيةٌ بقضائه ، موقنةٌ بلقائه .

شخصية سوية تميِّز بين الحق والباطل والهدى والضلال ، وتلتمس العون والهُدى من الله .

شخصية سوية : متفائلةٌ لمستقبلها الدنيوي والأخروي ليقينها بأن رب العالمين هو الرحمن الرحيم ، والرحمن الرحيم هو مالك يوم الدين ، فهي في نعيم برحمات الله الدنيوية ، وشوقٍ لرحمات الله الأخروية .

" والشخصية الإسلامية هي الشخصية الإنسانية الوحيدة التي توسم بأنها شخصية سوية ، سوية في صفاتها وخصائصها ، في آمالها وطبائعها ، في مقاييسها وموازينها ، هي الشخصية السوية التي لم تمسخ فطرتها ، ولم تشوه جبلتها ، هي الشخصية الإنسانية السوية التي تسعى في هذا الكون لتكون الإنسان

١- الأذكار للإمام النووي (١ / ١٥٢).

الذي شاءه خالق الكون ومبدع الحياة وفاطر الإنسان ، وغيره يجري في الحياة منكس القلب مشوش الفكر ، لا يعرف طريقه ولا سبيله " [1] .

وصدق الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك: ٢٢]

شخصيةٌ سوية تأنس لكتاب ربها فترى فيه سرورها وبهجتها ، وتقر عينُها بتلاوته وتدبره ؛ ولذا قال نبينا ﷺ : (وجعلت قرَّة عيني) [2] ، وكان يقول : (أرحنا بها يا بلال) [3] ؛ إذ الصلاة قُرة عينه ، وأنسُ روحه ، وبهجة فؤاده ورياضُ قلبه ، وتدبر القرآن حدائقه المونقة وجنته المورقة وربيعه المزهر ، قال ابن القيم : " وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة . وقال لي مرة : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري إن رحت فهي معي لا تفارقني ، إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة ... وعلم اللهُ ما رأيتُ أحدا أطيبَ عيشا منه قطّ ، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا وأشرحهم صدرا ، وأقواهم قلبا ، وأسرّهم نفسا تلوح نضرة النعيم على وجهه " [4]، وقال الزركشي : " ومن لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر لم يدرك من لذة القرآن شيئا " [5].

وقال الغزالي : " إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات ... فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ، ودخل المقاصير ، وشهد العرائس ولبس الديابيج ، وتنزه في الرياض ، وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك ، وشغله عما سواه ، فلم يعزب قلبه ، ولم يتفرق فكره [6] .

١- معالم الشخصية الإسلامية ، د. عمر سليمان الأشقر ص ١٢ .

٢- عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " رواه أحمد في المسند (٣ / ٢٨٥) ، والنسائي في السنن (٧ / ٦١) ح ٣٩٤٠ وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (٣١٢٤) .

٣- رواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب ، ورواه أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (٣٣٩/٦) ، وقال ابن الأثير " وقيل : كان اشتغاله بالصلاة راحة له ، فإنه كان يعد غيرها من الأعمال الدنيوية تعباً ، فكان يستريح بالصلاة ، لما فيها من مناجاة الله تعالى "جامع الأصول – (٦ / ٢٦٤) .

٤- الوابل الصيب لابن القيم (١ / ٦٧) .

٥- البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢ / ١٥٥) .

٦- إحياء علوم الدين للغزالي (١ / ٢٨٢) .

وقال عثمان ﷺ : " لو طَهُرَتْ قلوبُكم ما شبعتم من كلام الله ﷻ " [1] . " وإنما قال ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام ، ولذلك قال ثابت البناني : " كابدت القرآن عشرين سنة ، وتنعَّمتُ به عشرين سنة " [2] .

ثالث عشر : شخصيةٌ واعيةٌ : فتدبُّر الفاتحة مما يجمع شتات القلب ويقوي ملكة التفكير ، حيثُ يعي المرءُ ما يقول ، ويطلب العون من الله – تعالى – في سائر الشؤون والهداية لكل خيرٍ ، والسير على خطى من أنعم الله عليهم ، فيرقى الإنسان بذاته ويرقى بتفكيره ليصبح ثاقب الذهن عميق الفكرة واسع الأفق

فالصلاة معراجٌ للنفس ومرقاةٌ للروح ، ومشكاةٌ للقلب ، ومصباحٌ للعقل ، وتنويرٌ للأذهان .

جاء في كتاب روح الصلاة : " الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس إنما مرجعه إلى الموضوعات والغايات التي يوجهون إليها هممهم ، وإلى درجة التركيز التي يسعهم أن يبلغوها " ، تأمل قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢] ، كيف ربط بين الفلاح والخشوع في الصلاة بما يستلزمه من تركيز وتدبر " [3] .

شخصيةٌ واعيةٌ بما حولها حين يقرأ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فإنه لا يغفل عن حمد ربه وشكره على نعمه الظاهرة والباطنة ، وحين يقرأ : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يتذكر تلك العوالم التي تعيش حوله ، ويظلُّ على وعيٍ بالكون والحياة ، وإذا قرأ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يتذكر هذا اليوم فلا يغيب عن خاطره ولا يغفلُ عنه بل يصبح ويمسي على حذرٍ من هذا اليوم ، قال تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧] ، فإذا قرأ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإنه لابد أن يكون على وعيٍ بمفهوم العبادة وأحكامها ومقاصدها وحكمها ، فإذا قرأ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فلا بد أن يكون على وعي بهذا الطريق ومن سبق إليه من المؤمنين المهتدين يتوخَّاها ، كما يكون على حذر بطرق أهل الجحود والضلال ، يتجنبُها ويتوقَّاها ، إنه يسير على نور من ربه وبينة من أمره بتدبُّره وفهمه ، قال إياس بن معاوية: " مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره ، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم

١- الزهد لابن حنبل (١ / ١٢٨)

٢- إحياء علوم الدين – (١ / ٢٨٨)

٣- روح الصلاة ، عفيف طبارة .

روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما في الكتاب " [1] .

رابع عشر : شخصٌ مثقَّفٌ : له معرفةٌ ودرايةٌ بالكونِ والعوالِم والأممِ والممالِكِ والحضارات والثقافات والأفكار والتوجهات ، فحينما يَقْرأُ المؤمنُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يدركُ أن هناك عوالمَ كثيرةً ، فيتطلَّعُ إلى التعرُّفِ عليها ، ليملكَ تصوُّرًا للكونِ الذي يعيشُ فيه ، ويعرفَ دورَه في هذه المنظومة الكونية ، ويزداد يقينا بعظمة الخالق جلَّ وعلا ، فقد جمع بين المعرفة والغاية والمنهج والثمرة : معرفة الله تعالى وحقِّه على العباد ، والغاية التي من أجلها خلقنا ، والمنهج الذي نترسَّم به طريقنا نحو تحقيق هذه الغاية الأسمى ، والثمرة التي نرجوها من وراء سعينا نحو غايتنا .

وهذا المسلم المثقف مرهف الإحساس رقيق المشاعر ؛ لأنه يتذكر دائما رحمة الله – تعالى – ، حين يقف مراتٍ كثيرةً في يومِهِ وليلتِهِ أمام الاسمينِ الجليلينِ (الرحمن الرحيم) وهذه الثقافة ثقافةٌ واعيةٌ مبصرةٌ ؛ إذ أنها لا تقف عند أقطار هذا الكون المادي وحدود تلك الدنيا الفانية ، بل تشمل ما وراء هذا الكون من غيبياتٍ كُشفت عن طريق الوحي ، وما وراء هذه الحياةِ من حياةٍ باقيةٍ ، ثم إن هذا المثقفَ لا بُدَّ له من رسالةٍ واضحةٍ ورؤيةٍ مبصرة وإدراكٍ لواجبه نحو خالقه ورجائه منه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

شخصٌ مثقَّفٌ حريصٌ على المنهج القويم والسلوك المعتدل في سائر أموره ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

مصادر هذه الثقافة واسعةٌ وثرَّة وأصيلةٌ ومتجددةٌ ، مصدرها الأول ربانيٌّ يلمسه في الكتاب والسنة .

له معرفةٌ بالأممِ الصالحةِ ، والمجتمعاتِ الفاضلةِ ، يُعنى بتتبُّعِ أخبارِها والاقتباس من هدايتها والاهتداء بصلاحها ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

له معرفةٌ بطرقِ الضلالِ وسُبُلِ الغِوايةِ ، والأديان المحرَّفَةِ والوضعية ، والفلسفاتِ الضالَّة والتياراتِ المنحرفةِ ، والبدع والأهواء ، والطوائف التي عرفت الحق وجحدته والتي ضلت عنه ، يحذرُها ويحذِّرُ الناسَ منها .

خامس عشر : مرهف الحسّ : سورة الفاتحة ترققُ القلوب وتثيرُ الوجدان ، وتسمو بالأرواح وتحلِّق بها في آفاقٍ رحيبةٍ ، بتعظيم الله ومحبته ، والشوقِ إلى لقائه ، وحفظِ العهد معه بعبادته وحده والاستعانة به ، وطلب الهداية منه . ولين القلوب ورقتها باستحضار الاسمين الجليلين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ما يرقِّق القلوب ويثير بواعث الشفقة والرفق .

١- المحرر الوجيز لابن عطية (١ / ٣٩) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١ / ٢٦) .

مرهف الحسِّ : تذوبُ مشاعرُه مع أهل الإيمان ، ويشعرُ بالألفة والانسجام ، حتى صار يدعو بلسانهم ويطلب الخير لنفسه ولهم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فكأنهم جميعا قلبٌ واحدٌ وروحٌ واحدة، على حد قول الشاعر معبرا عن هذه الألفة والوحدة :

لقد فنيتُ بك عني حتى ظننت أنك أني .

وقول الآخر :

يا أخي في الهند أو في المغربِ أنت لي أنت مني أنت بي

مرهفُ الحسِّ يحبُّ أهل الإيمان ويطلب الخيرَ لهم، ويخفقُ القلبُ شوقا ولهفةً للحاقِ بركبِ الصالحين.

سادس عشر : شخصية قيادية رائدة : لابد لكل مجتمعٍ صالحٍ من مناراتٍ يهتدِي بها ، ونجومٍ يستنير بها ، ومُثُلٍ عليا يطمحُ إليها ، وتاريخٍ مشرقٍ يعلِّمه أبناءه ، ويلتمسُ منه العبرُ والعظاتُ ، ويستلهمُ منه البطولاتِ والأمجادَ ، وسورة الفاتحة يفوحُ منها عبقُ هذا التاريخ وتلوحُ تلك المناراتِ التي أضاءت للإنسانيةِ طريقَها ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ والذين أنعم الله عليهم جاء بيانُهم في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩] ، والقرآن الكريم سجلٌّ زاخرٌ بمآثر الأنبياء والصالحين ومناقبهم والدعوة إلى التأسي بالأنبياء والاقتداء بهم والتماس طريقهم واقتباس أنوارهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠] فمن أراد القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في شتى الميادين وسائر المجالات فسيجدها في قصص القرآن وسيرة نبينا ﷺ وحياة الصحابة والتابعين والأئمة المهديين.

مع ما في قراءة هذه السورة وتدبُّرها من خير وبركة وتثبيت للفؤاد وربطٌ للقلب وتزكيةٌ للنفس ، وقوة للعقل ، ورياضةٌ للذِّهن ، ودُربةٌ على التفكير والاستنباط ، وطلب العون والهداية والاستقامة من الله ، وتلك من أهم مؤهلات القيادة ومقومات الريادة .

سابع عشر : شخصيةٌ أبيةٌ : تدبر السورة الكريمة والعيش في معانيها يكسبُ المؤمن قوةً وإباءً ، وصلابةً ومنعةً ، فقلبه معلَّقٌ بربه ، وروحهُ ترنو إلى منازلَ عاليةٍ فلا تهبطُ إلى سفاسف الأمور :

على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ

فتعظُمُ في عين الصَّغيرِ صغارُها ... وتصغر في عين العظيمِ العظائمُ [1] .

شخصيةٌ أبية : كلما قرأتْ السورة بتدبُّر وخشوع يزيد إيمانها ومعرفتها بربها ومحبته وتعظيمه ، وثقتها بطريقها ، فتهون في ناظريها الحياةُ ، وتذلُّ أمامها الصِّعابُ ، وتكتسبُ حصانةً وقوةً ومنعةً تواجهُ بها التحديات وتجابهُ الأزمات، وتصمدُ أمام أعاصير المحن ، ورياح الفتن ، فلا تذلُّ ولا تهونُ .

يقول الشيخ الدوسري – رحمه الله – : " عقيدة المسلم وأخلاقه المنبثقة من شعاره الصادق ، وضراعته الخالصة بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هي في صميمها قوة بناءة ، وحركة دافعة إلى النمو المطرد ، وانطلاق إلى الحركة الدائبة في سائر المجالات التي بها تحقيق الذات ، وفرض الإرادة " [2] .

شخصية حرةٌ أبيةٌ لا تحني الجباه إلا لله ولا تخضع لأحد سواه ولا تستعين بغيره ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ثامن عشر : عاملٌ متعاونٌ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : في طلب العون من الله – تعالى – دليلٌ على اشتغال العبد بالعمل الصالح ، فطلب العون لا يكون إلا لمن استغرق في عبادة أو طاعة أو عمل نافع يطلب العون على إتمامه ، فالمسلم يعملُ بجدٍّ وتفانٍ ، ويعاون الآخرين ليكون أهلا لعون الله – تعالى – (وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) [3]، والتعاون من معالم الشخصية المسلمة ومن القيم الإنسانية الرائعة والأسس الحضارية الرصينة ، وهو ضرورة من ضرورة الحياة ، لولاه لما استقامت ، فاللبنات المتناثرة هنا وهناك لا قيمة لها لكن حين يبنى بها جدارٌ متينٌ فترى البنيان مرصوصا تدرك أهمية التماسك ومتانة الترابط وقوة التعاون ، والإنسان لا ينهض وحده بكل متطلبات الحياة ، بل جعل الله الناس متفاوتين متفاضلين ليكمل بعضهم بعضا ، ويخدم بعضهم بعضا ، هذا على مستوى الأفراد والشعوب ، كذلك على مستوى الأمم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٢] .

والحياة ليست كما يصورها أعداء الإنسانية صراعا وصداما ، واتكالا على الأسباب المادية وحدها ، لكنها كما يريدها الإسلام تعاون وتكامل ، وتنافسٌ في الخيرات ، والتماس العون من الله – تعالى – ،

١- للمتنبي . ينظر : ديوان المتنبي (ص٣٨٥) .

٢- صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري ٢٢٩/١ .

٣- رواه مسلم في صحيحه ، الذكر والدعاء والتوبة ، باب فَضْلِ الاِجْتِمَاعِ عَلَى تِلاَوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ ٣٨ – (٢٦٩٩) .

قال ابن القيم : " فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب ، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضادُّه وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين " [1].

قال القشيري : " والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه ، ونُزُولك بساحة جوده ، وتسليمك إلى يد حكمه ، فتقصده بأمل فسيح ، وتخطو إليه بخطو وسيع ، وتأمل فيه برجاء قوي ، وتثق بكرم أزلي ، وتعتصم بسبب جوده "[2].

والمرء لا ينهضُ ولا ينجح إلا بتوفيق الله وعونه ، ولذا كان دأبه وديدنه الاستعانة بربه في كل وقت وحين وفي كل عمل مهما كان يسيرا ، وصدق من قال :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يجنِي عليه اجتهادُه[3] .

قال الألوسي : " فمن استعان بغيره في المهمات بل وفي غيرها فقد استسمن ذا ورم ، ونفخ في غير ضَرَم ، أفلا يستعان به وهو الغني الكبير ؟ أم كيف يطلبُ من غيره والكلُّ إليه فقير ؟ وإني لأرى أن طلب المحتاج من المحتاج سفهٌ من رأيه ، وضلة من عقله ، فكم قد رأينا من أناس طلبوا العزة من غيره فذلوا ، وراءوا الثروة من سواه فافتقروا ، وحاولوا الارتفاع فاتضعوا ، فلا مستعان إلا به ولا عون إلا منه

إليك وإلا لا تشد الركائب ومنك وإلا فالمؤمل خائب

وفيك وإلا فالغرام مضيَّع وعنك وإلا فالمحدث كاذب " [4].

تاسع عشر : يؤدي واجباته ويعرف حقوقه : الشخصية المسلمة شخصيةٌ مدركةٌ لواجباتها ، واعيةٌ بحقوقها ، تسعى لأداء الواجبات كما تحرصُ على الوفاء بالحقوقِ ، وسورة الفاتحة تعلِّمُنا درسًا مهمًّا في أن الواجبات أولا ، فكما نطالبُ بحقوقِنا ونُلحُّ في طلبها ، فهل نحرصُ على أداء واجباتنا ؟ تأمل في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فالعبادة أولا وهي حق الله – تعالى – ، ثم طلب العون وهذا حظُّ العبد ، فبدأ بالاستعانة لأن حق الله أولى من حقوق العباد ، وحقُّ الله هو الأصل الذي تنبثق عنه حقوق العباد ، والوسيلة مقدمة على القصد ، ولقد شقيت كثير من المجتمعات حين

١- مدارج السالكين (١ / ٧٨) .
٢- لطائف الإشارات للقشيري باختصار ١/ ٤٩ .
٣- البيت منسوب لعلي بن أبي طالب ﷺ . ينظر : الفرج بعد الشدة للتنوخي (١/١٧٧) .
٤- روح المعاني للألوسي (١ / ٩١) .

انشغل أفرادها بالمطالبة بحقوقهم دون أن يكترثوا بما عليهم من واجبات ، بينما الشخصية المسلمة متوازنة ، تؤدي واجبها قبل أن تشتغل بالمطالب ، وتثبت على الحق ، وتمضي على طريقه .

وكما قيل : على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالب

سأل أحد العوام شيخا عارفا فقال : إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله فإن قمت وخرجت تفرقت ، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي فما الأفضل في حقي ؟ فقال : إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم وأجب داعي الله ، ثم عد إلى موضعك ، وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب ، وإجابة الداعي حق الرب ، ومن آثر حظَّ روحه على حق ربه فليس من أهل إياك نعبد [1] .

عشرين : شخصية ثابتة : لا تتبدل ولا تتلون ولا تتقلب بتقلبات الزمان أو بتغير الأحوال أو بمفارقة الأوطان ، ثابت في مبادئه ثابت في أهدافه وغايته ، ثابت على منهجه ، ثابت في رؤيته ، ثابت في أخلاقه النابعة من الرحمة أمِّ الفضائل ، وكذلك العدل ، ثابت في رؤيته للكون والحياة ، لا يزداد إلا فهما وتعمُّقا ويقينا ، ثابت في رسالته التي يحيا من أجلها ، عبادة الله وحده ، ثابت في استعانته يستعين بالله وحده في السراء والضراء في المنح والمحن ، ثابت في طموحاته وهي الهداية والسير والمضي قُدُما على طريق الأنبياء والصالحين ، فهو شامخ كالجبل ، راسخ كالطود .

الخاتمة

١. يسَّر الله – تعالى – كتابه لتدبُّره وفهمه ؛ حتى ينتفع به الصغيرُ والكبيرُ ، ويتأثَّرُ به العالمُ والعامِّي .
٢. تدبُّر القرآن عصمةٌ ووقايةٌ من الفتن ، وعلاجٌ لضعف الإيمان وأمراض القلوب ، وتثبيتٌ للمؤمن وتوعيةٌ له وتبصيرٌ ، وإصلاحٌ للنفس والمجتمع .
٣. تدبُّر القرآن الكريم بناءٌ للشخصية المسلمة ، وإعدادٌ لها في أحسن صياغة .
٤. عظمة سورة الفاتحة وبركةُ قراءتها وتأثيرها العجيب في النفوس .
٥. استحضار عظمة سورة الفاتحة وفضائلها الكثيرة وأسمائها وأوصافها الجليلة ومقاصدها الجامعة مما يهيئ النفسَ ويجمع القلب على تدبُّرها .
٦. ضرورة تدبُّر صلاة الفاتحة للانتفاع بثمراتها والتماس بركاتها والتأثُّر بها .
٧. قراءة السورة في الصلاة بتأنٍّ وتؤدةٍ حتى يتمكن القارئ والسامع من تدبُّرها .

١- مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٨٦) .

٨. التدبُّر يحتاجُ لتعوُّدٍ وتمرُّسٍ ، فهو ملكةٌ ومهارةٌ ، وتوفيقٌ من الله تعالى يحتاج لقلبٍ طاهرٍ واعٍ وذهنٍ صافٍ ، وفكرٍ حاضرٍ .

٩. أُوصي بتطبيق هذا المنهج على سورٍ أخرى كسورة العصر وغيرها ، قال الإمام الشافعي : " لو تدبر الناس في سورة العصر لوسعتهم " ، أي لكانت كافيةً في إصلاحهم ، وقال عنها أحد العلماءُ الحكماءُ : " لم أتعلم معنى هذه السورة إلا من بائع الثلج كان يطوف بالسوق ، ويقول ارحموا من يذوب رأس ماله " [١] .

١٠. أوصي بعقد مجالس التدبُّر ، وإقامة دورات تدريبية على مهارات التدبُّر .

تمَّ بحمد الله ، وكان الفراغ منه بالمدينة المنورة في ليلة الخامس عشر من شهر جمادى الآخر سنة ١٤٣٤هـ كتبه أحمد بن محمد الشرقاوي .

sharkawe2000@yahoo.com

١- تراجع يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر للمؤلف ، ط / أضواء البيان ، درعا ، سوريا .

مراجع البحث

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى : ١٣٩٤هـ .
٢. إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد لغزالي ط دار المعرفة بيروت .
٣. أخلاق حملة القرآن للآجري ، أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الآجُرِّيِّ الْبَغْدَادِيِّ ت ٣٦٠ هـ . دُارُ الصَّفَا والْمَرْوَةِ بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ . الطَّبْعَةُ الأُولَى : ١٤٢٦ هـ /٢٠٠٥ م .
٤. البحر المديد ، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ
٥. بدائع الفوائد ، للإمام ابن القيم : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله .
٦. بدائع التفسير لابن القيم جمع وتوثيق يسري السيد ط دار ابن الجوزي الأولى ١٤١٤
٧. البرهان في علوم القرآن ، للإمام الزركشي : محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله ط : دار المعرفة – بيروت ، ١٣٩١
٨. التبيان في آداب حملة القرآن ، للإمام النووي ، أبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي : الوكالة العامة للتوزيع – دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م
٩. التفسير الكبير للإمام الرازي : محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي ط دار إحياء التراث العربي .
١٠. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي ، ط : دار احياء التراث العربي بيروت – لبنان ١٤٠٥ هـ .
١١. الحجة في القراءات السبع ، لابن خالويه الحسين بن أحمد بن خالويه أبي عبد الله ط : دار الشروق – بيروت الطبعة الرابعة ، ١٤٠١
١٢. روح الصلاة عفيف طبارة ط دار العلم للملايين بيروت .
١٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للألوسي محمود أبو الفضل ط دار إحياء التراث العربي بيروت .
١٤. زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ط مؤسسة الرسالة – مكتبة المنار الإسلامية – بيروت – الكويت ١٤٠٧ – ١٩٨٦ .
١٥. الزهد للإمام أحمد ابن حنبل ط دار الريان للتراث سنة النشر ١٤٠٨ .
١٦. السبعة في القراءات ، لابن مجاهد ، أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي ط : دار المعارف القاهرة الطبعة الثانية ، ١٤٠٠
١٧. سنن أبي داود ، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ط: دار الكتاب العربي بيروت.
١٨. سنن الترمذي ، أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، ط دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٩٨ م .
١٩. سنن الدارمي : عبدالله بن عبدالرحمن أبي محمد الدارمي ، ط: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ .
٢٠. السنن الكبرى للإمام النسائي: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي ط: دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩١ .
٢١. سنن النسائي : المجتبى من السنن للإمام أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي ، ط:مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ – ١٩٨٦ .

٢٢. سورة الصلاة ترتج بها المساجد والمصليات، ولكن !! ، د. عبد الحكيم بن عبد الله القاسم ط المنتدى الإسلامي مجلة البيان .
٢٣. شعب الإيمان ، للإمام البيهقي : أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، ط: دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١٠ .
٢٤. صحيح البخاري : الجامع الصحيح ، للإمام : محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري ط : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ .
٢٥. صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ، للشيخ : محمد ناصر الدين الألباني ط: المكتب الإسلامي : بيروت الطبعة : الثالثة سنة الطبع : ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م
٢٦. صحيح مسلم ، للإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : أ . محمد فؤاد عبد الباقي .
٢٧. صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ، للشيخ عبد الرحمن محمد الدوسري ت١٣٩٩هـ ط دار المغني للنشر والتوزيع بالرياض ط١ ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م .
٢٨. ط : مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة الطبعة الأولى ، ١٤١٦ – ١٩٩٦
٢٩. ط دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الطبعة الثانية ، ١٣٩٢
٣٠. العقيدة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة ، لأبي الحسن الندوي ص ٦٣ ط ندوة العلماء بالهند .
٣١. الفوائد ، للإمام ابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله ط دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣ .
٣٢. لطائف الإشارات للإمام القشيري : عبد الكريم بن هوازن ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٣٣. المحرر الوجيز ، لابن عطية عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ) ط مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر – الدوحة ١٤٠٣هـ .
٣٤. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، للإمام ابن القيم ، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله ط : دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣
٣٥. المستدرك على الصحيحين ، للإمام الحاكم ، محمد بن عبدالله أبي عبدالله الحاكم النيسابوري ط: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠ .
٣٦. المسند للإمام أحمد بن حنبل ، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، (ت ٢٤١هـ) ، ط عالم الكتب – بيروت الطبعة : الأولى ، ١٤١٩هـ. ١٩٩٨ م .
٣٧. المصنف في الأحاديث والآثار ، للإمام : أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ط : مكتبة الرشد – الرياض الطبعة الأولى ، ١٤٠٩.
٣٨. معالم التنزيل في تفسير القرآن للإمام البغوي : أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت٥١٠هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط ١ ، ١٤٢٠ هـ
٣٩. معالم الشخصية الإسلامية ، د.عمر سليمان الأشقر ص ١٩ ط مكتبة الفلاح الكويت ١٣٩٩ ط١ .
٤٠. المعجم الكبير للإمام للطبراني ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (المتوفى : ٣٦٠هـ) ط مكتبة العلوم والحكم – الموصل الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ – ١٩٨٣ .
٤١. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، للإمام النووي ، أبي زكريا يحيى بن شرف النووي
٤٢. الوابل الصيب من الكلم الطيب، للإمام ابن القيم : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ط : دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ – ١٩٨٥ .